أمطار الربيع

سمير التنير*

يجب أن يقيموا «للكَرْسون» تمثالاً؛ فهو ينافس أيّوب في الصبر على المكاره: الاستيقاظ في ساعة مبكّرة، والمشاركة في طبخ الطعام، ثم انتظار الروّاد وتحمُّل اللعنات التي تُصبّ على رأسه، ثم الوقوف عشرَ ساعات أو أكثر في انتظار أن تصفّق يدٌ أو يَصْرخ صوت: «كرسون.»

ولكنّي على الرغم من هذا العمل المشؤوم الذي ابتُليتُ به فقد كنتُ راضيًا. وكثيرًا ما حلمتُ بقطرات الربيع تَنْهمر على طاولات المقهى، وبأشجار الكينا ترتعش في الريح وتنحني تقبّل الأرض. وبين الأشجار في الأفق يتراءى مشهدٌ رائع: غيوم بيضاء ترحل ببطء، وتحت الغيوم منظرُ بيروت تمتدّ كالكف منبسطةً. وكنتُ أسمع بين الفيْنة والفيْنة صوتَ المالك «أبو خليل الدوري» يزأر في وحشية: «وِلِكْ ليلى.. وِلِكْ ليلى.. مقصوفة العمر.» وألمح بعد قليل ليلى ترميني بنظرة فضول، ثم تنزل القبوَ لتساعد أباها.

صدِّقْني عندما أقول لك إنّ الصدْفة هي التي رمتني إلى ذاك المصيف وإلى العمل كرسونًا. فبعد أن أمضيتُ في بيروت شهريْن عاطلاً عن العمل، صعدتُ إلى الجبل، ولحسن الحظ كان الصيف على الأبواب فتلقّفوني حالاً. ولما لم يعطوني شيئًا قلتُ لنفسي: «صحيح أنّك لم تَقْبِض نقودًا، لكنّكَ تأكل وتنام وتعيش وسط عائلة.» ويا لها من عائلة! فالمالك أبو خليل سمين كقطعة زبد مدوّرة، له وجه نحاسيّ قاس، وشنبان صغيران معقوفان، وعينان تدوران كعينيْ ثعبان، يرتدي صدرية منزوعة الأكمام، ويعلو رأسَه طربوشٌ ضخم. أما زوجته أمّ خليل فكانت سمينة لها أردافُ بقرة، ووجهٌ تبدو عليه السذاجةُ والطيبة لكنّه يخفي مكْرَ الثعلب. ليلى كانت الوحيدة التي ليست فيها ملامحُ الحيوانات؛ فهي رقيقة وإنْ كانت تميل إلى البدانة، حلوة، شفّافة، لها شعر ذهبي يتألّق في نور الشمس، وعيونٌ عسليةٌ تضيء كالكهرباء.

كانت أرض المطعم تبدأ من الطريق العامّ بلافتةٍ حمراء جذّابة كُتب عليها بخطّ أصفر: «مطعم ومقهى الملوك.. لصاحبه أبو خليل الدوري.» ومن هناك يمتدّ ممرّ طويل يتعرّج حينًا بين الصخور، ويختفي حينًا، ثم تستبينه رقعة خضراء أمام دار ريفية مسقوفة بالقرميد.

لم يكن هناك من وقت نَلْتقط فيه الأنفاس. البنت والأم واقفتان وقفتَهما الخالدة في المطبخ، تُعدّان الكبّةَ والتبّولة، والسلطةَ والمازة؛ ونحن الاثنان نُفرغ الطعامَ ونروح ونجيء حاملين الصواني؛ وفي المساء يُنْهكنا التعبُ بحيث لا يستطيع أحدُنا أن يحكي للآخر كلمتين.

كان الزوج والزوجة يكرهان واحدهما الآخر كراهيةً شديدة. كان الأب طاغية أحمق يحبّ الشجار لأقلّ الأسباب تفاهةً. أما الأم فكانت عنيدة كصخرة، خبيثة، مصمِّمة دائمًا على أن تكون لها الكلمةُ الأخيرة. والحقّ أنّني جهدتُ في معرفة أسباب الخلاف، فتبيّن لي أنّ السبب هو تنازعٌ على النفوذ. كانت الزوجة طموحة، تردِّد دومًا: «أرضنا موقعُها ممتاز، فلِمَ لا نحوّل هذا المقهى العتيقَ إلى مقهى ومطعم حديث ونُطْلق عليه اسمًا جديدًا هو مقهى ومطعم الشاطئ الجميل؟» أما أبو خليل فكان قليلَ الثقة في نفسه، ربما لأنّه أحمق ورجعي وعدوّ لكلّ تقدّم. والسبب الأهمّ الذي اكتشفته فيما بعد هو أنّه كان يعارض لأنّ زوجته كانت صاحبة الاقتراح؛ ولو كانت تلك فكرته هو لأقْدَمَ عليها بكلّ شجاعة.

كان عليّ أن أدع هذه العائلة وشأنَها لو لم أقع في حب ليلى. وعلى الرغم من أنّني لم أصارحْها بذلك، فقد ظننتُ أنّ نظراتها تعني شيئًا. لم تكن بيننا صلةٌ ما. لا لمسات أيدٍ، ولا قبلات. لا شيء إطلاقًا. ولا أدري أيّ شيطان أوحى لي بأنّ ليلى تحبّني. على كل حال كان من طبيعتي الجَلَدُ والصبرُ، وقد أقنعتُ نفسي بالقول: «لو أنّ ليلى لم تحبّكَ اليوم، فسيأتي يوم تحبّك فيه.» ولذلك بقيتُ.

واستقرّ رأيي على أن أصارحها بالأمر؛ فصدري كان يضيق يومًا بعد يوم عندما أراها تتحدّث مع يوسف، أجير الفرن. كانت تبدو جميلة كملاك، لذيذة كقطعة من السكّر، بيضاء كالرخام. وكثيرًا ما حلمتُ بها، لكنْ ما إنْ أُفيق وأكتشف أنّ كل ما حصل كان حلمًا حتى أنخرط في بكاء مؤلم. وأخيرًا قررتُ أن أصارحها، وليكنْ ما يكون. وماذا سيحدث إذا ما نطقتُ تلك الكلمات: «أحبّكِ يا ليلى»؟ هل

---

* - كاتب من لبنان. صدرتْ له مؤخرًا رواية بعنوان **الصمت والصخب**.

ستنطبق الأرضُ على السماء؟ هل ستفيض الأنهار؟ هل ستسقط الحكومة؟ لا. لكنْ ماذا سيفعل بي أبو خليل؟ إنّه فظّ. لا ريب في أنّه سيذبحني ويرميني للكلاب، أو ربما استفاد من لحمي فقدّمه لزبائنه بسترما. إذن، كيف، وما هي الطريقة؟ إنّ ليلى لا تترك أمها دقيقةً، وهي مشغولة في المنزل أو في المطبخ، أو أنّها تمسح البلاط وتزيل الغبار.

فكّرتُ كثيرًا. كنت أجلس ساعات عديدة في الفراش أحدِّق في السقف، أفكّر. وأخيرًا اهتديتُ إلى طريقة. إنّ أبا خليل ينهض كلّ يوم باكرًا فينزل إلى القبو لإحضار النبيذ والخمر والحبوب، وحين يكتشف أنّ أغراضًا عديدة تنقصه يكلِّف ابنتَه ليلى بجلبها من دكان «أبو معروف.» هنا سيأتي دوري؛ فبعد أن تختفي ليلى بين أشجار الممرّ، سأسرع وراءها وأصارحها بحبي. أعجبتني هذه الفكرة على الرغم من أنّها غير متقنة: فقد يرانا أبو خليل، أو قد يكلِّفني بحمل قناني النبيذ والعرق، وقد يتفتّق ذهنُ أم خليل عن عمل لي ـ كتعليق صورة أو مسح البلاط أو قلي البطاطا.

تردّدتُ طويلاً قبل أن أُقْدم على شيء. وفي خلوة مع نفسي ذاتَ يوم أوشكتُ على البكاء، فقررتُ أن أنفِّذ ما اعتزمتُه في الغد. وفي اليوم التالي كان الصباح مخنوقًا بالغيوم الرمادية، وضبابٌ كثيرٌ يلوح على مبعدة عدة أميال والريحُ تحمله في اتجاهنا. نزل أبو خليل إلى القبو وأَحْضر قناني العرق، وشيئًا من الفاصوليا والبرغل. ثم صاح فجأةً كأنّه تذكّر شيئًا نَسِيه: «ولِكْ.. ليلى.. مقصوفة العمر، خبّري أمك أنّي سَأنزلْ اليوم إلى بيروت.» ثم صعد الدرجات وسلّمني قناني الخمر والحبوب، وأوصاني بأن أفتح عينيّ إذا ما جاء أحد. ثم انصرف حاملاً شمسيّتَه يهرول للحاق بأتوبيس البلدة. واختفت ليلى سريعًا في غرفة أمها ولم تظهرْ على الإطلاق في الردهة.

كاد يَغْلبني النعاس، فوضعتُ قناني الخمر وأكياسَ الحبوب الصغيرة على المائدة وأسندتُ رأسي بين يديّ على الطاولة. ولا أردي لِمَ اندفعتْ إلى مخيلتي كلُّ صور أهلي الذين تركتُهم منذ أمد بعيد. حانت منّي التفاتة إلى الراديو. كانت تنبعث منه أغنية عذبة رقيقة، وكان الصوت يشبه صوت أمي تغنّي لأخي الصغير أغنياتٍ تهدهده وتجلب لعينيْه النعاسَ. وكأنّما تسلّل الكرى إلى جفنيَّ، فإذا أنا وسط حلقة من أقاربنا في المنزل ألبس ملابس جديدة وأنتعل حذاءً يلمع، وأطوف وسط ناس يشدّون على يدي ويهتفون: «مبروك.» تبتسم أمي وعيناها تتألقان بالفرح، وأبي رمى المعولَ والمحراثَ ولبس سروالاً جديدًا، وأخواتي يرفلْن بملابس بيضاء. وهناك، تحت أضواء برّاقة، تتألّق ليلى بملابس العرس البيضاء، كملاكٍ هَرَبَ من السماء.. بيضاء كالرخام، لذيذة كقطعة من السكّر. أغاريد الفرح تتسلّل من بين الشفاه حادةً طويلةً، وكؤوسُ الشرابات توزَّع على الجمع الحافل، وأقراصُ الكاتو يتناولها المدعوون. والفرح.. الفرح يَفْرش ظلالَه على الوجوه ويضيئها بالسعادة.

ـ مبروك.. عقبال ما نشوف لك عريس.

ـ مبروك يا أبو سليم.

ـ مبروك يا أم سليم.

وها هو رجل معمّم، يَجلس وسط حلقة، ويَفتح دفترًا ضخمًا يَكتب فيه بضعَ سطور ويقرأها، فيهجم عليّ الناسُ يشدّون علي يدي مهنّئين:

ـ أنت... كرسون...

ـ نعم... نعم...

أفقتُ مذعورًا. شابان أنيقان وفتاة يبدون أمامي كأشباح. أَفرك عينيّ غيرَ مصدِّق.

ـ أنت.. يا كرسون.

ـ نعم.. لحظة واحدة.

لا تزال قناني الخمر ملقاةً على المائدة، وحبّاتُ الفاصوليا والفول والحمص تتناثر هنا وهناك. قمتُ مسرعًا ودمعةٌ تكاد تنفلت من عيني، وصوتي يخرج مبحوحًا:

ـ دقيقة واحدة.

ـ ثلاثة شاي.

دلفتُ إلى المطبخ وأشعلتُ الغاز بسرعة، فتصاعد بخارُ الماء إلى وجهي. المطر في الخارج يشتدّ، وقطراتُه تضرب السقف، بينما عيناي تَرْحلان إلى أشجار الكينا وهي تنحني لتقبّل الأرض.

حملتُ فناجين الشاي إلى الزبائن وجلستُ بعيدًا. كانت الظلمة تلفّ كلّ شيء.

ـ أنت.. يا كرسون.. ورق اللعب.

ـ حاضر.

أحضرتُ لهم ورقَ اللعب وأنا أحسّ شعورًا بالغًا بالسخط. كنتُ أودّ أن أُفرغ غضبي بأيّ طريقة وعلى أيّ إنسان. كان أحدهم أنيقًا ناعم الملامح. أما الثاني فله وجه مستدير وأنف مدوّر صغير وعينان كعيْني الخنزير، تلمع يداه بساعة ذهبية وخاتم ماسيّ. وكانت الفتاة حلوةً لا تتجاوز العشرين، بيضاء لها عيون سوداء ووجه لا يبدو عليه أيُّ تعبير. ملابسها رخيصة: تنّورة بسيطة، وكنزة صوفية يبرز من خلالها نهدان عامران.

ـ تعال.. كرسون. العبْ معنا.

ـ لا أعرف.

ـ اجلس. ستلعب معنا.

ـ ليس معي نقود.

ـ سأدفع عنك. اجلسْ فقط.

قالت الفتاة لصديقها بدلال: أتأتي إلى هذا المطعم كثيرًا؟ إنّه صغير وجميل. ما رأيك؟ هل نأتي في الأسبوع القادم؟

ـ ربما.

يرتمي ورقُ اللعب على المائدة كأوراق الأغصان القتلى. أقلّبه بين يديّ غيرَ مكترث.

قضينا زمنًا طويلاً نلعب البوكر. وفي تلك الجلسة اتّضح لي أنّ الفتاة غانية صغيرة استأجرها الشابّان للعبث وأتيا بها إلى هذا المطعم المنعزل.

يسأل الشاب:

ـ أتعرف لماذا يشرب الناسُ الخمر؟

ـ لكي ينسوا.. كي ينسوا أنّهم بشر.

ـ لا.. غلطان. إنّهم يشربون كي يستعيدوا لحظاتِ الفرح في حياتهم.. كي يذكروا أنّهم لا يزالون بشرًا.

تدخّلت الفتاة:

ـ صحيح.. صحيح. يا ربّ، هذا ما كان يدور في بالي منذ زمن.

صرخ الشاب الأنيق:

ـ أوف.. هل لديكَ ويسكي؟ أجلبْ لنا. هل عندك أسطوانات؟ أسمعْنا. نريد أن نفرح.

ضجّ الراديو بموسيقى الرقص المجنونة، وقام الشاب الأنيق والغانية الصغيرة يرقصان، وبين الفينة والفينة يجلسان ويعبّان الخمر بجنونٍ. وأخيرًا سأل: أما لديكم غرفة خاصة؟

أجبته بسرعة:

ـ لا، ليس عندنا.

انفجر ضاحكًا وهو يقول لرفيقه: يتجاهل، الكلب. كم تريد؟ قلْ!

ـ لا أريد شيئًا.. قلتُ لكم ليس عندنا.

صاح فجأةً وكأنّه أُهين إهانة بالغة:

ـ كذّاب.. كلب.. كذّاب.

ـ لا أكذب.

ـ كذّاب.

ولفحتْ صفعتُه خدّي، فصعد الدمُ سريعًا إلى وجهي وطنّت أذناي.

ـ كذّاب.

كانَ يتكلّم كالمبحوح، وهو يتأهّب كي يصفعني ثانيةً. لكنّي لم أمكّنه. قبضتُ على يده ولويتُها بأقصى قوتي. لم يتمالك نفسه فصرخ كقطة جريحة. ولا أعرف لماذا انقلبتُ وقتئذٍ إلى حيوان مفترس. ضربتُه بكلّ ما في يدي من قوة، وبكلّ ما في قلبي من حقد. تكسّرت القناني وانقلبت الموائد. وما توقفتُ إلاّ عندما أحسستُ بالدم يبلّل يدي. قام وهو يسبّ ويتمتم بكلمات مختلطة لم أتبيّن منها إلاّ عبارة: «بكرة بفرجّيك.»

رحل الثلاثة وهم يسبّون.

تطلّعتُ إلى المكان. لم يبقَ شيء إلاّ وناله التدمير. المطعم أصبح أطلالاً، والمطر يغنّي أغنيته الرتيبة على السقف.

لماذا لو توقفت السماءُ عن البكاء؟

ماذا لو رفعتَ عنّا حياةَ العذاب، يا ربّ؟

ارتعش جسدي كلّه. اتّكأتُ على الجدار وأخذتُ أهتزّ بنشيج عنيف. لم أحسّ إلاّ والمطر يَصْفع وجهي، يتسلّل إلى جسدي باردًا كالثلج وأنا أركض. أركض بلا وعي. ألحقُ أتوبيس البلدة، وحين بلغته التفتُّ ورائي. كانت تلوح لي على البعد لافتةٌ صغيرةٌ حمراء مكتوب عليها: «مقهى الملوك. لصاحبه أبو خليل الدوري» يَغْسلها المطرُ بالوحل والماء.

بيروت